تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، شرع لنا دينا قويما ، وهدانا صراطا مستقيما ، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وهو اللطيف الخبير .

اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أنت رب العالمين ، سبحانك لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ولي الصالحين ، وخالق الخلق أجمعين ورازقهم ، ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمَ مستقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[1] ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إله إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ ﴾[2] .

وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، أرسله الله رحمة للعالمين . فشرح به الصدور ، وأنار به العقول ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا[3] فجزاه الله عنا أفضل ما جزي به نبينا عن أمته ، ورضي الله عن أصحابه الطيبين ، وعمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن البحث في الحديث النبوي الشريف أمر له أهميته في بنية الفكر الإسلامي ، وتكوين العقلية المميزة للأمة الإسلامية ، خصوصا إذا ما تصورنا حجم الهجمة الشرسة وما ينصبه أعداء الأمة في الداخل والخارج من مكائد ، وما يراد للأمة من مسخ لشخصيتها ، ومحاولات لا تتوقف يراد بها صرف الناس وإعراضهم عن هدي النبوة ، وتشكيكهم فيما يصل إلى الأجيال المسلمة من الأحاديث النبوية ، ونسبة هذه الأحاديث إلى رسول الله ﷺ .

ولقد بذل العلماء جهودًا مشكورة فاقت كل تصور في صيانة الحديث الشريف ، وهو أمر قد عدم نظيره سواء ما يتصل بنسبة هذا العلم إلى غيره من علوم الإسلام ، أو ما يتصل بنسبة هذا العلم إلى غيره من سائر علوم الأمم ومعارفها ، يدفعهم إلى ذلك طاعة الله وطاعة رسوله ، ثم صيانة الأمة من الإنحراف والخلط ، ضمانا لرقيها وتقدمها ، وجعلها في مصاف الأمم المتقدمة ، مع هذا فإن حال الأمة لا يرهب عدوا ، ولا يفرح صديقًا ، ولا يطمئن المخلصون على مستقبلها . ولا يستريحون لحاضرها .

---

(١) سورة هود آية رقم : ٦.

(٢) سورة فاطر آية رقم : ٣.

(٣) غلفا : غلفت السيف جعلت له غلافًا ، أي غطاءً ، أو المعنى أن القلوب مغطاه لا تقبل علما ، المفردات للراغب الأصفهاني : ٣٦٤ط دار المعرفة ، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير : ٣ / ٣٧٩ ط دار إحياء التراث .

ولعل البحث عن أسباب ذلك ليس من مقصودنا ، مع الاعتراف بأن من وراء ذلك قصة طويلة ، بدأت منذ أمد بعيد ، وإن لم يعرف وقتها على وجه التحديد ، لماذا ؟

أمران لا يحدد لهما وقت بدقة :

النوم في حياة الفرد .

والانحطاط في حياة الأمة . فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا[٤] .

والأمم كالأفراد – إذاً – تتقلب ما بين مد وجزر ، وارتفاع وهبوط ، وتمر بها صنوف من الاختبارات والبلايا ، وأمتنا تطوف بها تلك الحادثات ، بل لعل حظها أوفر .

وقد حفلت السنوات الأخيرة بكثير من التناقضات العجيبة المؤسفة .

والذي يمكن أن أقرره هنا ... أن علل الأمة وأدواءها – لا تأتيها من الخارج بمقدار ما تأتيها من الداخل – ومن نفسها قبل غيرها .

ولله در من قال : ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين ، وهو كلام أصاب كبد الحقيقة[٥] .

ولك أن تنظر ....

تلك الضربات والهزات المتوالية والمتلاحقة التي أخضعت الأمة خضوع مذلة ومهانة لأعدائها .

فما بين إحياء للفرقة ونزعاتها – من خوارج[٦] ، ومعتزلة[٧] ورافضة[٨] ، رغم ما واجهه الإسلام من عنتهم ، وما كان لآرائهم في الصحابة وأئمة المسلمين من جموح[٩] ، وما نتج

---

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٤٣ ط دار القلم .

(٥) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ٦٧ ط دار مكتبة الحياة .

(٦) الخوارج : ويقال لهم : الحرورية والنواصبة ، والشراة – وهم جمع خارج : وهو الذي خلع طاعة الإمام الحق وأعلن عصيانه ، وقد أجمعوا على كفر الإمام عليّ لقبوله التحكيم وإن اختلفوا في كفره شرك أم لا ! أنظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/ ١٦٧ ط مكتبة النهضة بمصر . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .

(٧) المعتزلة : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، والذي يعم طائفتهم من الإعتقاد ؛ القول بأن الله قديم ، ونفي الصفات . فقالوا : عالم بذاته ، قادر بذاته . لا بعلم ولا بقدرة ، واتفقوا على أن كلامه حادث مخلوق في محل ، وعلى نفي رؤية الله بالأبصار في دار القرار ... إلخ . أنظر : الملل والنحل : ١/ ٦٣ ط الأزهر .

(٨) الرافضة : هم الذين رفضوا إمامة زيد بن علي بن الحسين . وكان من أمره أن بايعه خمسة آلاف من أهل الكوفة ، فأخذ يقاتل بهم يوسف بن عمرو الثقفي ، عامل هشام بن عبد الملك ، فلما اشتد القتال قال الذين بايعوا عليًا : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ قال : أثنى عليهما جدي عليّ ، وقال فيهما حسنًا . وأما خروجي على بني أمية فإنهم قاتلوا جدي عليا ، وقتلوا جدي حسينا . فخرجوا عليه ورفضوه ، فسموا بذلك رافضة .

انظر : التبصير في الدين لأبي المظفر الإسفراييني : ١٨ ط الأنوار بمصر .

(٩) جمح الفرس كمنع : جمحا وجموحا ، وهو جموح ؛ اعتز فارسه وغلبه بنشاطه في مروره وجريانه . ترتيب القاموس المحيط : ١/ ٥٢٤. ط عيسى الحلبي . المفردات للراغب : ٩٦.

عن ذلك من تعدد للآراء ، وانقسام بشع حول الشيء الواحد .

ولماذا هذه الجهود المبذولة لإحياء هذه النزعة ؟ نزعة التعددية - والفرق ؟ لما لهذه الفرق من آراء فاسدة ، وخصومات جائرة في مختلف العصور . من ذلك :

أ - نظرة أصحاب هذه الفرق من متكلمين وغيرهم إلى الحديث والمحدثين ، ورميهم إياهم بحمل الكذب ورواية المتناقض ، وذمهم وإسهابهم ومبالغتهم في انتقاصهم[١٠] .

ب - عدم وضوح رأى المعتزلة في السنة وإن لم يكن قد اتفق عليه الناقلون .

هل يقولون بحجيتها مطلقا كجمهور المسلمين ؟ أم ينكرون حجيتها مطلقا ؟

أم يقولون بحجية المتواتر دون الآحاد ؟[١١] - [١٢] .

ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل صحب تلك النزعة اتجاه آخر تركز حول الفقه والفقهاء ، كي يفقد الناس ضوابط أحكامهم الشرعية ، ويتحولوا إلى ضلالات شتى !

فكان من دواعي البحث :

١ - إنصاف المحدثين والفقهاء ، والإنتصار لهم ببيان شرفهم ورفعة شأنهم ، بالذب عنهم . وإبطال ما نسب إليهم من تهم ، ورد قول من يقول : إن المحدثين مجرد نقلة للأخبار ، جل همهم الإهتمام بالنقد الخارجي للحديث دون النقد الداخلي ، ولا خبرة لهم بما يحويه المتن ، فقد شغلتهم العنعنة[١٣] عن رحابة الفقه ، فلم يحسنوا تقرير الأحكام ، أو استنباط الأدلة ، حتى شاع في الأذهان أنهم لا يعرفون غير الحديث ، بل استبعد البعض أن يكون للمحدث أي نشاط فقهي !

وهنا لابد من توضيح أمرين :

الأول : الأسباب التي ساعدت على شيوع هذه الأفكار .

الثاني : الآثار المترتبة عليها .

ما الذي ساعد على شيوع هذه الأفكار وترسيخها ؟

الحق أن هذا الأمر لم يكن ليحدث تلقائيا ، بل هو نتيجة لمقدمة وأسباب ترتب عليها .

---

(١٠) أنظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة : ١١ ط دار الكتب العلمية .

(١١) التواتر : التتابع من غير انقطاع ، وعند المحدثين ؛ ما رواه جمع عن جمع في كل طبقة من طبقاته بحيث يحيل العقل تواطؤهم على الكذب ، أو صدوره منهم اتفاقا ، واستندوا في ذلك إلى أمر محسوس ... والآحاد ؛ ما لم تجتمع فيه شروط المتواتر ، فيشمل ما رواه واحد في طبقة ، وما رواه اثنان ، وما رواه ثلاثة فأكثر ما لم يصل إلى حد التواتر .
نزهة النظر : ١٩، ٢٦، دراسات في علوم الحديث : ١/ ١٤، ٢٧.

(١٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، د . مصطفى السباعي : ١٣٤ ط المكتب الإسلامي .

(١٣) العنعنة : ما يقال في سنده فلان ، عن فلان من غير بيان للتحديث ، أو الإخبار . شرح العراقي لألفيته : ١/ ١٦٢.

وإذا جاز لنا أن نقف من علماء الكلام المروجين لها موقف الحذر والشك فماذا يكون موقفنا من أنصاف المحدثين ؟ ، ولنترك واحداً من الأئمة أصحاب الغيرة على الحديث وأهله يعبرَ عن ذلك فيقول :

« فتري المحدث يكتب ويسمع خمسين سنة ، ويجمع الكتب ولا يدري ما فيها ، ولو وقعت له حادثة في صلاته لافتقر إلى بعض أحداث المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه .

وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين ، فقالوا : زوامل[١٤] أسفار ، لا يدرون ما معهم ، فإن أفلح أحدهم ونظر في حديثه فربما عمل بحديث منسوخ ، أو ربما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل وعمل بذلك ، وليس المراد من الحديث »[١٥] .

وصاحب هذا الكلام - أيده بأدلة ساقها - ثم عقب عليها بقوله : « فانظر إلى هاتين الفضيحتين ؛ فضيحة الجهل ، وفضيحة الإقدام على الفتوى بمثل هذا التخليط »[١٦] .

إن شيوع الفصل بين الفقيه والمحدث ساعد عليه بعض الرواة ممن لم يكن لهم بصر بالمعاني ، أو قدرة على الاستنباط واستخلاص الأحكام .

هؤلاء : هم الذين عناهم ابن الجوزي[١٧] .

وقد سبقه غيره من الغيورين على شرف أصحاب الحديث ممن صنفوا في ذلك مصنفات تشهد بالغيرة على الحديث والمحدثين ، وكيف انبري أصحابها في الدفاع عنهم ، وكان منهم ابن قتيبة[١٨] .

فقد أورد نماذج من تلك الطعون والتي ربما كانت السبب في تصنيفه لـ « تأويل مختلف الحديث » .

ودونك شيئا مما كتبه :

« قالوا : وهم مع هذا أجهل الناس بما يحملون ، وأبخس الناس حظا فيما يطلبون وقالوا

---

(١٤) زوامل : الزاملة ؛ بعير يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه ، زمل : يدل على حمله ثقلا من الأثقال ، معجم مقاييس اللغة لابن فارس : ٣/ ٢٥١.

(١٥) تلبيس إبليس : ١١٤ ط دار الكتب العلمية . (١٦) المصدر السابق : ١١٦.

(١٧) ابن الجوزي : الشيخ الإمام العلامة ، الحافظ المفسر ، شيخ الإسلام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ، ينتهي نسبه إلى الصديق ، ولد سنة ٥٠٩ هـ ، أو سنة ٥١٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٧ هـ ، التكملة لوفيات النقلة : ١/ ٣٩٤، وفيات الأعيان : ٣/ ١٤٠، سير أعلام النبلاء : ٢٠/ ٣٦٥، تذكرة الحفاظ : ٤/ ١٣٤٢، ذيل طبقات الحنابلة : ١/ ٣٩٩، غاية النهاية في طبقات القراء : ١/ ٣٧٥.

(١٨) ابن قتيبة : فقيه الأدباء ، وأديب الفقهاء ، محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ٢١٣ - ٢٧١هـ وهو اختيار ابن خلكان ، تاريخ بغداد : ١٠/ ١٧٠، وفيات الأعيان : ٣/ ٤٢، سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٢٩٧، تذكرة الحفاظ : ٢/ ٦٣٣، ميزان الاعتدال : ٢/ ٥٠٣، البداية والنهاية : ١١/ ٤٨، شذرات الذهب : ٢/ ١٦٩.

في ذلك :

زوامل للأشعار لا علم عندهم ... يجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ... بأحماله أو راح ما في الغرائر[١٩]

قد قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه ، ورضوا بأن يقولوا : فلان عارف بالطرق ورواية الحديث ، وزهدوا في أن يقال عالم بما كتب ، أو عامل بما علم ، قالوا : وما ظنكم برجل منهم يحمل العلم وتضرب إليه أعناق المطي خمسين سنة أو نحوها سئل في ملأ من الناس عن فأرة وقعت في بئر ، فقال : البئر جبار[٢٠] . وآخر سئل عن قوله تعالى : ﴿ رِيحٌ فِيهَا صِرٌّ ﴾[٢١] . قال : هو هذا الصرصر ، يعني صراصير الليل ، وآخر حدثهم عن سبعة وسبعين ، يريد شعبة سفيان » إلى آخر كلام طويل أورده عمن حط على أهل الحديث ، ثم قال : « هذا ما حكيت في طعنهم على أصحاب الحديث ، وشكوت تطاول الأمر بهم على ذلك من غير أن ينضح عنهم ناضح ، ويحتج لهذه الأحاديث محتج ، أو يتأولها متأول ، حتى أنسوا بالعيب ، ورضوا بالقذف ، وصاروا بالإمساك عن الجواب كالمسلمين ، وبتلك الأمور معترفين »[٢٢] .

وإذا كان ابن قتيبة - رحمه الله - لم يسلم لأصحاب هذه الطعون طعونهم في أهل الحديث ، بل دافع عنهم ، وحملهم المسئولية فقال متسائلا في باب « ذكر أصحاب الحديث » من كتابه :

« فهل أصحاب الحديث في سقطهم إلا كصنف من الناس ؟ » .

على أنا لا نخلي أكثرهم من العذل فى كتبنا في تركهم الاشتغال بعلم ما قد كتبوا ، والتفقه بما جمعوا ، وتهافتهم على طلب الحديث من عشرة أوجه ، وعشرين وجها ، وقد كان في الوجه الواحد الصحيح والوجهين مقنع لمن أراد الله عز وجل بعلمه حتى تنقضي أعماره ولم يخطوا من ذلك إلا بأسفار أتعبت الطالب ولم تنفع الوارث »[٢٣] .

ومثل ابن قتيبه ، في عدم تبرئته لساحة المحدثين ، وأنهم هم الذين أعطوا غيرهم فرصة الطعن عليهم ، وفتحوا لهم بأيديهم باب الهجوم ؛ الخطيب البغدادي[٢٤] . في كتابه « الفقيه والمتفقه » يقول رحمه الله :

---

(١٩) البيتان : لمروان بن سليمان بن يحيى ، هجا بهما قوما من رواة الشعر ، هامش تأويل مختلف الحديث : ١٧.

(٢٠) المعني والله أعلم : أنه توهم أن البئر لا ينجس بوقوع الفأر فيه ، إذ الجبار بالضم : البرئ من الشيء .

(٢١) سورة آل عمران آية رقم : ١١٧ (٢٢) تأويل مختلف الحديث : ١٧، ١٨، ١٩

(٢٣) المصدر السابق : ٧٦

(٢٤) الإمام العلامة الحافظ الناقد ، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ، صاحب التصانيف ٣٩٢ - ٤٦٣هـ - تبيين كذب المفتري ٢٦٨، اللباب ١/ ٤٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٩٢، سير أعلام النبلاء : ١٨/ ٢٧٠، تذكرة الحفاظ : ٣/ ١١٣٥، شذرات الذهب : ٣/ ٣١١

« قد يحمل الحديث من يكون له حافظا ، ولا يكون فيه فقيها ، وأكثر كتبة الحديث في هذا الزمان بعيد من حفظه ، خال من معرفة فقهه ، لا يفرقون بين معلل[٢٥] وصحيح ، ولا يميزون ما بين معدل من الرواة ومجروح ، ولا يسألون عن لفظ أشكل عليهم رسمه ، ولا يبحثون عن معنى خفى عليهم علمه ، مع أنهم قد أذهبوا في كتبه أعمارهم ، وبعدت في الرحلة لسماعه أسفارهم ، فجعلوا لأهل البدع من المتكلمين ولمن غلب عليه الرأي من المتفقهين طريقا إلى الطعن على أهل الآثار ، ومن شغل فيه بسماع الأحاديث والأخبار ، حتى وصفوهم بضروب الجهالات ونبذوهم بأسوأ المقالات ، وأطلقوا ألسنتهم بسببهم ، وتظاهروا بعيب المتقدمين وثلبهم ...» .

إلى أن يقول :

وحق لمن كانت حاله هذه أن يطلق فيه القول الفظيع ويشنع عليه بضروب التشنيع[٢٦] فإذا كان الحال على ما وصف الخطيب ومن قبله ابن قتيبة - فهل يعذر أهل الأهواء والبدع في حطهم على أهل الحديث ؟ !.

اكتفي هنا ببيان ما ذكرت لأقرر :

١ - هذه الطعون صدرت من أصحاب الأهواء والبدع وكفى . إذ لا قدم لهم راسخة في علوم الحديث ، وربما حمل عليها الحسد ودوافع شخصية من بغض للحديث وأهله .

٢ - إنها صدرت في حق جماعة من المنتسبين إلى أهل الحديث ، ولم تكن في حق المتبحرين فيه إذ لم يثبت في حقهم شيء من هذا .

٣ - ربما وجد من الأسباب والدوافع غير هذا - مما هو من طبائع النفوس التي لا يعلم مداها إلا الله ، ولعل ما ذكرته أهمها .

٤ - إن الفقه إنما يعتمد أساسا وبالدرجة الأولى على النص من الكتاب والسنة مع بصر تام بالمعاني والغايات ، وفقه بلا نص ، خط بلا وضوح ، وشبح بلا روح ، أو هو جهد باطل ومن ثمَّ وجب على الفقهاء التعمق في علم الحديث . كما على المحدثين أن يتقنوا الفقه ويتعمقوا في فهم المعاني .

٥ - الحديث من الفقه بمنزلة الروح من الجسد ، أو الأساس للبناء ، وكل بناء لا يقوم على

---

(٢٥) يقال : حديث معلل ومعلول وكلاهما غير مستقيم إذ لا يساعد على إستعمال المحدثين من حيث اللغة ، والأولى أن يقال « معل » من أعله وعلة الحديث في إصطلاح كثير من المحدثين ، أمر خفي غامض قادح في صحته ، مع أن ظاهر أمره السلامة منه ، وذلك كالانقطاع في ظاهر الاتصال ، والوقف في ظاهر الرفع .. وما فيه علة غير قادحة لا يقال له معل ، فإذا أرسل الثقة حديثًا في مكان ثم وصله في آخر لا يقدح ذلك فيه ، وهذا النوع من أجل علوم الحديث وسبيل معرفته ؛ الجمع بين طرق الحديث ، والنظر في اختلاف رواته ، أنظر : التقييد والإيضاح : ١١٥، تدريب الراوي : ١/ ٢٥١، دراسات في علوم الحديث : ٢/ ١١٦

(٢٦) الفقيه والمتفقه : ٢/ ٧١ - ٧٣ ط دار الكتب العلمية .

أساس لا يؤمن عواقبه ، وأساس بلا بناء ما قيمته ؟

٦ – ضرورة بذل الجهود لسد الخلل العلمي بين المشتغلين بالفقه والحديث لحاجة كل منهما الماسة إلى ما عند غيره .

على هذا نقول :

* إنهما معا يكملان إذا اجتمعا ، وينقصان إذا افترقا .

* الفقيه والمحدث لا ينفصلان ، ولا يستقل أحدهما عن الآخر ، لحاجة كل منهما إلى صاحبه ، وإن كان الواقع بخلافه حيث يثبت الواقع المشاهد وجود فجوات علمية بين أصحاب الإتجاهين .

وهذا ما قررة الخطابي[٢٧] ، وتأمل ما نص عليه بعد ذكره للمحدثين والفقهاء « ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحلين والتقارب في المنزلتين ، وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض ، وشمول الفاقة اللازمة لكل منهم إلى صاحبه ، إخوانا متهاجرين ، وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين »[٢٨] .

الآثار المترتبة على هذه الطعون :

الحق أن لهذه الطعون آثاراً إيجابية طيبة ، على غير المنتظر والمتوقع إذ المعهود أن تقعد بالمحدثين الهمم ، وأن تصرفهم الصوارف ، وتثبط عزائمهم ، شأن الاشاعات المفتراة إذا ما ألصقت بالأبرياء والشرفاء ، فكانت بحق بردا وسلاما وخيرا وبركة على الحديث وأهله . **ومن دلائل ذلك :**

١ – معرفة طرق الرد على مثل هذه المثالب وإبطالها وتفنيد مزاعم أصحابها ، فقد أبانت ولا شك للعلماء كيفية ذلك والتدريب عليه ، فإذا ما وقعت بعد هذه الانتقادات لم تزدهم علما بوقوعها ، فقد ألفوها ومرنوا على الرد عليها .

٢ – ما عاد بسبب ذلك من نفع عميم على أهل الحديث سواء في ذلك ، الناحية العلمية أو النظرية ، فظهرت الكتب المصنفة في هذا الأمر . أمر الدفاع عن السنة والأنتصار لأهل الحديث . وأدى ذلك إلى يقظة المحدثين ووعيهم ، وتمايزهم ، فسدوا الثغرات التي فتحت عليهم ، فعرف من يجمع المرويات لمجرد الجمع ، ومن يجمعها بخبرة ودراية ووعي ، وبالتالي من يسيء إلى سمعة المحدثين ممن لا يسيء ، ولعل من تمام الفائدة **أن نشير إلى بعض تلك الكتب وبواعث تأليفها ...**

---

(٢٧) هو الإمام العلم – المحدث ، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب من ولد زيد بن الخطاب ، صاحب التصانيف المفيدة الكثيرة النافعة ، ولد سنة بضع عشرة وثلاث مئة ، وتوفي سنة (٣٨٨ هـ) رحمه الله . معجم البلدان : ١/ ٤١٥– اللباب : ١/ ١٥١، وفيات الأعيان : ٢/ ٢١٤. سير أعلام النبلاء : ١٧/ ٢٣، تذكرة الحفاظ : ٣/ ١٠١٨، البداية والنهاية : ١١/ ٢٣٦، شذرات الذهب: ٣/ ١٢٧

(٢٨) مقدمة معالم السنن : ٦ ط دار المعرفة .

١ - المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، للقاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي[٢٩] - والكتاب واضح من عنوانه - فهو دعوة إلى التمايز ، وفضح الدخلاء بلطف وأدب ، وأهمية التخصص والتبحر من جانب أهل الصنعة بالوعي والفهم ، وإن كان القاضي لم يذكر ذلك صراحة أو يتحدث عن بواعث تأليفه ، بيد أن هذا أمر يدرك بالفحوي .

ولعل صرخات ابن قتيبة - قد وصلت إليه - فبدلا من أن يلوم غيره لام نفسه أولا ، وقبل أن يطالب الطاعنين والمتحاملين بوقف حملاتهم وجه نصائحه الغالية الحكيمة إلى بني جنسه ، مطالبا إياهم أن ينتفعوا بتلك اللطائف دون أن يستثير أحداً .

ولندع ابن خلاد يحدثنا في مقدمة كتابه فيقول : « اعترضت طائفة ممن يشنأ[٣٠] الحديث ويبغض أهله ، فقالوا بتنقص أصحاب الحديث والازدراء بهم ، وأسرفوا في ذمهم والتقول عليهم ، وقد شرف الله الحديث وفضل أهله وأعلى منزلته ، وحكمه على كل نحلة ، وقدمه على كل علم ...» ثم يوضح أسباب هذا التفضيل واستحقاق الرتبة الرفيعة ... وسر هذا العداء والحقد على المحدثين ، لما يرى من اجتماع الناس عليهم ، والتفاف القلوب حولهم .

فيقول : « ولأنه « أي الحاقد » عول في أكثر ما أودعه كتبه وأكثر الرواية عنه على طبقة لا يعرفون إلا الحديث ، ولا ينتحلون سواه ، وهم عيون رجاله ، ليس فيهم أحد يذكر بالدراية ، ولا يحسنون غير الرواية فألا تأدب بأدب العلم وخفض جناحه لمن تعلق بشيء منه ولم يبهرج[٣١] شيوخه الذين عنهم أخذ وبهم تصدر ، ووفى الفقهاء حقوقهم من الفضل ولم يبخس الرواة حظوظهم من النقل ، ورغب الرواة في التفقه ، والمتفقهة في الحديث وقال بفضل الفريقين وحض على سلوك الطريقين فإنهما يكملان إذا اجتمعا وينقصان إذا افترقا »[٣٢] .

٢ - ومنها كتاب أخلاق العلماء للآجري[٣٣] .

---

(٢٩) ضبطه في اللباب بفتح الراء والميم ، وضم الهاء والميم الثانية ، نسبة إلى رامهرمز ، إحدى كور الأهواز من بلاد خوزستان : ٢/ ١٠، إمام حافظ بارع ، عاش إلى قريب الستين وثلاث مئة ، ويعد كتابه هذا أول ما صنف في علوم الحديث ، وقد حققه الدكتور / محمد عجاج الخطيب ، ونال به درجة الدكتوراه ، وطبعته مؤسسة دار الفكر ، له ترجمة في : سير أعلام النبلاء : ١٦/ ٧٣ تذكرة الحفاظ : ٣/ ٩٠٥، طبقات الحفاظ : ٣٧٠، شذرات الذهب : ٣/ ٣٠، الرسالة المستطرفة : ٤٢

(٣٠) يشنأ : يبغض ، انظر مادة شنأ ، ترتيب القاموس المحيط : ٢/ ٧٥٨

(٣١) البهرجة : العدول بالشيء عن الجادة ، والبهرج الباطل والرديء ، وبهرج الشيء ، أخذ به على غير الطريق ، معجم مقاييس اللغة : ١/ ٣٣٣

(٣٢) المحدث الفاصل : ص ١٥٩، ١٦١، ط دار الفكر .

(٣٣) بفتح الألف الممدودة ، وضم الجيم وتشديد الراء ، نسبة إلى عمل الآجر وبيعه ، اللباب : ١/ ١٨، وإليها ينسب الإمام المحدث القدوة ، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي، صاحب التواليف ، توفي سنة (٣٦٠ هـ)، والكتاب طبعته رئاسة إدارات البحوث العلمية - بالسعودية - له ترجمة في : تاريخ بغداد : ٢/ ٢٤٣، وفيات الأعيان : ٤/ ٢٩٢، سير أعلام النبلاء : ١٦/ ١٣٣، البداية والنهاية : ١١/ ٢٧٠

وهو كتاب صغير الحجم لا يزيد عن ١٢٤ صفحة من الحجم الصغير ، إلا أنه صادر عن خبرة ودراية وتجربة ، وبصر بالفقه والسنن ، وكما هو ظاهر بعد قراءته أنه :

بيان لعلماء السوء ، ببيان صفاتهم ، ممن فتنهم حسن الثناء ولبسوا ثياب الخز على قلوب الذئاب ، وتجملوا بحلل الدنيا لا بحلل العلم والعمل .

وأنا أورد طرفا من كلامه ، فيقول :

« هذه الأخلاق وما يشبهها تغلب على قلب من لم ينتفع بالعلم ، فبينا هو مقارن لهذه الأخلاق إذ رغبت نفسه في حب الشرف والمنزلة ، وأحب مجالسة الملوك وأبناء الدنيا فأحب أن يشاركهم فيما هم فيه »[٣٤] .

ولم يتوقف إصدار هذه المؤلفات عند سنة ٣٦٠هـ ، بل ظهرت جملة من المؤلفات ذات الدلالة الخاصة - للخطيب البغدادي - والتي منها :

١ - شرف أصحاب الحديث[٣٥] .

٢ - الكفاية في علم الرواية[٣٦] .

٣ - الفقيه والمتفقه[٣٧] .

٤ - تقييد العلم[٣٨] .

٥ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع[٣٩] .

ولنبحث عند الخطيب في واحد من هذه الكتب عن سر تأليفه فنراه يقول في « شرف أصحاب الحديث » بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله : « أما بعد ، وفقكم الله لعمل الخيرات وعصمنا وإياكم من اقتحام البدع والشبهات » .

فقد وقفنا على ما ذكرتم من عيب المبتدعة أهل السنن والآثار ، وطعنهم على من شغل نفسه بسماع الأحاديث وحفظ الأخبار ، وتكذيبهم بصحيح ما نقله إلى الأمة الأئمة

---

(٣٤) أخلاق العلماء : ص ١٢١ ط رئاسة إدارات البحوث العلمية - بالسعودية .

(٣٥) طبع في أنقرة بتحقيق الدكتور محمد سعيد خطيب أوغلى سنة ١٩٧١

(٣٦) يعرض فيه الشروط الواجب توافرها في عالم الحديث ، وقد طبع في حيدر آباد الدكن عام ١٣٥٧ هـ ، وأعيد طبعه في القاهرة بعناية الأستاذ / عبد الحليم محمد عبد الحليم ، وعبد الرحمن حسن محمود ، مطبعة السعادة : ١٩٧٢

(٣٧) طبع بعناية وتعليق الشيخ / إسماعيل الأنصاري ، عضو دار الإفتاء بالسعودية ، في مطابع القصيم بالرياض سنة ١٣٨٩ هـ ، وقام بنشره دار الكتب العلمية ببيروت ، وفي مقدمته يحيل باللأئمة على أهل الحديث ثم يرسم فيه لصاحب الحديث خاصة ، ولغيره عامة ما ينصحه به أن يتميز عمن رضي لنفسه بالجهل .

(٣٨) نشره المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٤٩، بتحقيق الأستاذ / يوسف العشي ونشرته دار إحياء السنة النبوية .

(٣٩) طبع في الكويت في مطبعة الفلاح سنة ١٩٨١، وقام الأستاذ / محمد رأفت سعيد بتحقيقه وعنوان الكتاب يغني عن التعليق .

الصادقون ، واستهزائهم بأهل الحق فيما وضعه عليهم الملحدون ، ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمِدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٤٠] ، وليس ذاك عجبا من مبتغي الهوى ، ومن أضلهم الله عن سلوك سبيل الهدي[٤١] .

ثم جاء بعد الخطيب ، أبو المظفر السمعاني[٤٢] ، فتعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة ، وكان شوكا في أعين المخالفين ، وحجة لأهل السنة .

ومن آثاره الحديثية :

أ - الأمالي[٤٣] .

ب - الإنتصار لأهل الأثر[٤٤] .

جاء فيه « قد لهج بذم أصحاب الحديث صنفان :

أهل الكلام . وأهل الرأي .

فهم في كل وقت يقصدونهم بالثلب والعيب ، وينسبونهم إلى الجهل وقلة العلم ، واتباع السواد على البياض ، وقالوا : « غثاء وغثر[٤٥] ، وزوامل أسفار ، وقالوا أقاصيص وحكايات وأخبار ، وربما قالوا : « كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً »[٤٦] . وفي الحقيقة ما ثلموا إلا دينهم ، ولا سعوا إلا في هلاك أنفسهم ، وما للأساكفة وصوغ الحلي ، وصناعة البز ؟ .

وما للحدادين وتقليب العطر ، والنظر في الجواهر ؟ .

أما يكفيهم صدأ الحديد ونفخ الكير ، وشواظ الذيل والوجه ، وغبرة في الحدقة ، وما لأهل الكلام ونقد حملة الأخبار ...»[٤٧] إلى آخره .

ومع اشتمال تلك الكتب لقواعد علوم الحديث ، وإرساء أصوله وآدابه ، ومقاومتها تلك المقاومة الجادة الهادئة الهادفة لكل منتسب إلى العلم من غير أهله .

---

(٤٠) سورة البقرة آية رقم : ١٥ (٤١) شرف أصحاب الحديث : ٣، ٤

(٤٢) بفتح السين وسكون الميم وفتح العين ، نسبة إلى سمعان جد المنتسب إليه ، اللباب : ٢/ ١٣٨، وهو : الإمام العلامة شيخ الشافعية ، منصور بن محمد بن عبد الجبار ٤٢٦ - ٤٨٩ هـ ، طبقات السبكي : ٤/ ٢٤، سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٤، البداية والنهاية : ١٢/ ١٥٣ ، طبقات الداودي : ٢/ ٣٣٩ ، شذرات الذهب : ٣/ ٣٩٣ ، الرسالة المستطرفة : ١٠٣

(٤٣) قال حفيده في الأنساب : ٣/ ٢٩٩ ط دار الكتب العلمية ببيروت ، ونقله عنه السبكي ٤/ ٢٤ « وأملي المجالس في الحديث وتكلم على كل حديث بكلام مفيد ، وصنف التصانيف في الحديث مثل منهاج السنة ، والانتصار ، والرد على القدرية وغيرها » .

(٤٤) ذكره السبكي : ٤/ ٢٤ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٩/ ١١٧ باسم الانتصار بالأثر .

(٤٥) الغثاء : ارتفاع شيء دنئ فوق شيء ، ويقال لسفلة الناس . والغثر : من الأغثر وهو الطحلب : معجم مقاييس اللغة : ٤/ ٤١٢

(٤٦) اقتباس من الآية رقم ٥. من سورة الجمعة .

(٤٧) نقلا من كتاب « صون المنطق » للسيوطي : ١٤٧، ١٤٨ ط دار الكتب العلمية .

ومع أن الفقهاء أنفسهم قد اهتموا بالأسانيد وعلم الحديث ، فقد حفلت تلك المصنفات بإبراز ما تفرد به علماء السنة من مواهب وسمات خاصة بهم لم يشاركهم فيها غيرهم .

وأنهم على الحق لا يضرهم من خذلهم أو عاندهم ، فقد أخذوا أمرهم من الكتاب والسنة ، وقرنوا أسماءهم باسم رسول الله ﷺ ، منه استمدوا وعنه نقلوا ، فاتفقوا وأتلفوا . ذلك أن النقل عن المتقنين الأثبات قلما يختلف فيه أحد ، وإن وقع فيه اختلاف فإنه لا يضر إن شاء الله .

جاء عن شيخ الإسلام ابن تيميه[٤٨] أنه قال :

« من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم ، فإن المنازع لهم لابد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقا أخرى مثل المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة والمكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك .

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها ، فهم أكمل الناس عقلا وأعدلهم قياسا ، وأصوبهم رأيا ، وأسدهم كلاما ، وأصحهم نظرا وأهداهم استدلالا ، وأقومهم جدلا وأتمهم فراسة وأصدقهم إلهاما وأحدهم بصرا ومكاشفة وأصوبهم سمعاً ومخاطبة وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً .

وهذا هو للمسلمين دون سائر الأمم ، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل[٤٩] فهم قد شاركوا غيرهم وزادوا عليهم » .

هم أمة واحدة ، ونسيج واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، مهما نأت بهم البلاد ، وتباعدت الأقطار ، يجرون على طريقة واحدة لا يحيدون ولا يميلون .

حتى قال أبو المظفر : لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم نقلوه عن سلفهم ، وجدته كأنه جاء من قلب واحد ، وجري على لسان واحد ، وهل على الحق دليل أبين من هذا ؟[٥٠] .

أين من هذا – أهل الأهواء والبدع ومن جعلوا الدين غرضا للخصومات والفتن ؟ إنك لا تكاد تظفر باثنين منهم على طريقة واحدة ، هم أبدا في تنازع وتباغض ، يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا .

---

(٤٨) هو الإمام البارع الناقد الفقيه المجتهد ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ، الحراني ٦٦١ – ٧٢٨ هـ ، البداية والنهاية : ١٤/ ١٦٣، تذكرة الحفاظ : ٤/ ١٤٩٦، ذيل طبقات الحنابلة : ٢/ ٣٨٧، شذرات الذهب : ٦/ ٨٠، طبقات الداودي : ١/ ٤٥، طبقات الحفاظ للسيوطي : ٥٢٠، الدرر الكامنة : ١/ ٤٤ ط الجبل ، البدر الطالع : ١/ ٦٣ ط دار المعرفة .

(٤٩) نقض المنطق : ٧، ٨ ط مكتبة السنة المحمدية .

(٥٠) صون المنطق : ١٦٧ نقلا عن أبي المظفر السمعاني في كتابه الانتصار .

أو ما سمعت أن المعتزلة مع اجتماعهم في هذا اللقب يكفر البغداديون منهم البصريين ، والبصريون منهم البغداديين ، ويكفر أصحاب أبي علي الجبائي[٥١] إبنه أبا هاشم[٥٢] ، وأصحاب أبي هاشم يكفرون أباه أبا علي ، وكذلك سائر رؤوسهم وأرباب المقالات منهم[٥٣] ؟

فتأمل هذا وتدبر كيف أن الله صان أهل الحديث مما وقع فيه غيرهم ، وبهذا يظهر فضلهم وشرفهم ، وما هم عليه من حق لا يختلفون فيه ، لذا نرى غيرهم يفر إليهم ، ولا يفرون هم إليه ، بل يوصي غيرهم خاصته بما عليه أهل الأثر لأنه الحق .

ولم لا يرجع الناس إليهم وهم الممكن لهم ، بقبول الأخبار منهم ؟

وحسبك أن إمام الحرمين وهو من هو ؟[٥٤] .

يقول : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام »[٥٥] .

وقوله : « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به »[٥٦] .

« اشهدوا على أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة »[٥٧] .

وأخرج الخطيب إلى أحمد بن سنان[٥٨] .

قال : « كان الوليد الكرابيسي[٥٩] خالي ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحدًا أعلم بالكلام مني ..؟ قالوا : لا . قال : فتتهمونني ..؟ قالوا : لا قال : فإني أوصيكم .

---

(٥١) أبو علي الجبائي : بضم الجيم وتشديد الياء ، قرية من قرى البصرة . ينسب إليها محمد بن عبد الوهاب صاحب مقالات المعتزلة ٢٣٥ - ٣٠٣ هـ اللباب ١/ ٢٥٥

(٥٢) أبو هاشم : عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب ، شيخ المعتزلة ، وابن شيخهم ولد سنة ٢٧٧ - ٣٢١ هـ ، تاريخ بغداد : ١١/ ٥٥ شذرات الذهب : ٢/ ٢٨٩

(٥٣) صون المنطق للسيوطي ١٦٧ نقلا عن أبي المظفر في كتابه الانتصار ، وانظر : الاستقامة لابن تيمية : ٤٩ وما بعدها ، ترى كثيراً من هجوم علماء الكلام على الفقه والفقهاء .

(٥٤) إمام الحرمين : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف ٤١٩ - ٤٧٨ هـ ، له ترجمة في : تبيين كذب المفتري : ٢٧٨، معجم البلدان لياقوت : ٢/ ١٩٣، وفيات الأعيان : ٣/ ١٦٧، سير أعلام النبلاء : ١٨/ ٤٦٨، طبقات السبكي : ٣/ ٢٦١

(٥٥) صون المنطق : ١٨٣ نقلًا عن أبي المظفر السمعاني .

(٥٦) طبقات السبكي : ٣/ ٢٦٠، والذهبي في سير أعلام النبلاء : ١٨/ ٤٧٤، ولم يرتض السبكي هذا الكلام ، وقال : « إنا نشتبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة » .

(٥٧) سير أعلام النبلاء : ١٨/ ٤٧٤

(٥٨) أحمد بن سنان بن أسد بن حبان القطان ، ولد بعد السبعين ومئة ، وتوفي (سنة ٢٥٦هـ) ، كان إماماً بارعاً ، صنف المسند ، وكان يقول : « ليس في الدنيا مبتدع إلا ويبغض أصحاب الحديث ، وإذا ابتدع الرجل بدعة نزعت حلاوة الحديث من قلبه » له ترجمة في : الجرح والتعديل : ٢/ ٥٣، تذكرة الحفاظ : ٢/ ٥٢١، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٤٤ تهذيب التهذيب : ١/ ٣٤

(٥٩) هو الوليد بن أبان الكرابيسي ، بفتح أوله والراء ، نسبة إلى بيع الثياب ، اللباب : ٣/ ٨٨، أحد أئمة الكلام ، تاريخ بغداد : ١٣/ ٤٤١، سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٥٤٨

أتقبلون ..؟ قالوا : نعم . قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم[٦٠] .

وكما كان لهذه الطعون من آثار إيجابية عادت بالخير والبركة على الحديث وأهله - كان لها أيضًا آثاراً طيبة على الفقه وأهله ، ومن مظاهر ذلك :

- ما قام به جمع من كبار المحدثين بتأليف كتب خاصة في تخريج الأحاديث التي يستشهد بها الفقهاء ، ومن هؤلاء :

ابن الجوزي في كتاب « التحقيق في تخريج التعاليق » .

- الزيلعي جمال الدين[٦١] في كتاب « نصب الراية لأحاديث الهداية » والكتاب أشهر ما صنف في هذا الفن وقد قام مؤلفه بتخريج الأحاديث التي استشهد بها العلامة على بن أبي بكر الرغيناني ت ٥٩٣ هـ في كتاب الهداية في الفقه الحنفي .

- ابن حجر العسقلاني[٦٢] ت ٨٥٢ هـ في كتابه « الدراية في تخريج أحاديث الهداية » قام فيه بتلخيص « نصب الراية » .

ومن مؤلفات الحافظ ابن حجر في هذا الشأن أيضًا « التلخيص الحبير في تخريج أحاديث شرح الوجيز الكبير » لخص فيه كتاب « البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير » لابن الملقن ت ٨٠٤ هـ وكتاب « الشرح الكبير » للرافعي ت ٦٢٣ هـ الذي شرح فيه الوجيز للغزالي .

٢ - ومن الدواعي : خطورة الانتصار للرأي الواحد ، والانغلاق على الفكرة الواحدة ورفض ما عداها ، ولا سيما إذا ما صاحب ذلك نوع تعصب أو زعم أنها الحق ، وما سواها غير ذلك .

وطالما أن في الأمر سعة فلماذا التضييق ؟

إن الآثار المترتبة على الانغلاق على الفكرة الواحدة كثيرة ، وسلبياتها خطيرة .

يكفي أن يكون منها :

تفويت الخير على الناس ، عنتا وإحراجا ومشقة . وأين من هذا احترام الرأي ، والرأي الآخر ؟ . أين منه التماس الأعذار ، وأن نتعاون في المتفق عليه ؟ . والله إنما أثاب المجتهد على اجتهاده ، وحط عنه الإثم ، وقد نقل عن الصحابة من اختلافهم في الأحكام واستمرارهم على الاختلاف مع عدم صدور نكير أو تأثيم على أحد لا تصريحا ولا تلميحا ، لا على سبيل الإبهام ولا التعيين .

---

(٦٠) الخطيب في شرف أصحاب الحديث : ٥٦، تاريخ بغداد : ١٣/ ٤٤١، والذهبي في سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٥٤٨

(٦١) جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت ٧٦٢هـ) فقه أهل العراق ٧٢

(٦٢) أحمد بن حجر بن على العسقلاني ٧٧٣ - ٨٥٢ هـ ذيل تذكرة الحفاظ : ٣٨٠، طبقات الحفاظ : ٥٥٢، شذرات الذهب : ٧/ ٢٧٠

في حين أنهم حاربوا مانعي الزكاة .

فلو كانت المسائل الاجتهادية نازلة منزلة هذه المسائل - العبادات - وتحريم الزنا والقتل - في كونها قطعية ومأثوما على المخالفة فيها لبالغوا في الإنكار والتأثيم حسب مبالغتهم في الإنكار على من خالف في وجوب العبادات الخمس وفي تأثيمه لاستحالة تواطئهم على الخطأ[٦٣] .

وقال سفيان الثوري[٦٤] : « ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهي أحدًا من إخواني أن يأخذوا به » .

وقوله : « إذا رأيت الرجل يعمل العمل قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه عنه »[٦٥] .

ما أجمل أن تسود هذه النظرة التي تقبل من الناس أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم ونقصهم ، وما لا يعجبك قد يعجب غيرك ، ولقد أسرف البعض في الابتعاد عنها ، فكانت نظرتهم للمسائل الخلافية بعين واحدة ، أو من جهة واحدة ، فجاءت عليلة .

فهل يزعم أحد أن الصواب حكر عليه ؟ وهل يقبل هذا الزعم ؟

إننا ننكر هذا ، وننكر الخلفية المتوترة لمثل هذا الزعم الذي يشبه الفتن .

ما الذي يترتب على هذا ؟.

يترتب عليه أمر يجب توضيحه هو :

أن الأخذ بقول من الأقوال المختلف فيها لا يرد الآخر ، ولا يوجب تبديعا أو تفسيقا . وأن ترجيح بعضها على بعض ليس هجراً لنص أو أثر ، كما أن اعتماد مذهب دون الآخر لا يوجب مدحا أو قدحا .

ذلك أن هذا ليس من مظاهر الخروج على النص من الكتاب أو السنة ، مما هو من باب رد الأمر الواحد من أوامر النبي ﷺ ، الموجب للفتنة أو العذاب الأليم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٦٦] . فلا يرد أمر من أوامر الرسول ﷺ فذلك زيغ وفتنة .

جعل الإمام أحمد[٦٧] رضي الله عنه ، يردد هذه الآية ويقول : وما الفتنة ؟ الشرك . لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه[٦٨] . وكما لا يرد الشيء

---

(٦٣) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي : ٤/ ٢٤٥ ط دار الكتب العلمية .

(٦٤) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق ، الثوري - بفتح الثاء نسبة إلى ثور تميم - اللباب ١/ ٢٤٤، أحد الأعلام (٩٧ - ١٦١ هـ) ، طبقات ابن سعد : ٦/ ٣٧١ تاريخ بغداد : ٩/ ١٥١، تهذيب التهذيب : ٤/ ١١١

(٦٥) الفقيه والمتفقه للخطيب : ٢/ ٦٩ (٦٦) سورة النور آية رقم : ٦٣

(٦٧) هو الإمام العلم : أحمد بن محمد بن حنبل ١٦٤ - ٢٤١ هـ طبقات ابن سعد : ٧/ ٣٥٤، تاريخ بغداد : ٤/ ٤١٢، طبقات الحنابلة : ١/ ٤، سير أعلام النبلاء : ١١/ ١٧٧

(٦٨) الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لابن تيمية : ٥٦ ط دار الكتب العلمية تحقيق محمد محي الدين .

الواحد من كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ ، فكذلك لا يحمل الناس حملا على أخذ أو ترك لأمر مختلف فيه .

فهاهنا أمران :

الأول : عدم حمل الناس على الأخذ بقول مختلف فيه . فغايته اجتهاد بشر لا إجماع عليه وما كان كذلك فلا يؤمر أحد بالأخذ به ولا ينهي عنه .

الثاني : الحذر من أن يجرنا ذلك إلى رد أوامر الله ، وأوامر رسوله ﷺ . فنندفع حين الانتصار للأمر الأول إلى رد الثاني .

إن حالات الترغيب أو الترهيب . وحالات استثارة العاطفة من شدة فرح أو غضب وغير ذلك لها مدخل كبير في التأثير على المرء والتحكم في قرارته قربًا أو بعدًا من الصواب .

من هنا يجب ألا تكون إصدارات المرء ردودًا فعلية لمواقف معينة . ولذلك رفض الإمام مالك[٦٩] أن يكون كتابه « الموطأ » قانونا قضائيًا للدولة العباسية . وقال : « إن أصحاب رسول الله ﷺ ، اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان وكل مصيب »[٧٠] وفي الحلية « وكل عند نفسه مصيب »[٧١] وفي هذا دليل على فقه الرجل ، وسعة علمه ، وقوة بصره ، ونفاذ بصيرته ، وهو أمر غير مستبعد على مثله كيف . وقد قال : « إن الناس قد جمعوا واطلعوا على أشياء لم نطلع عليها »[٧٢] ؟

وقال « ليس أحد بعد النبي ﷺ ، إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ »[٧٣] .

ولقد رُوي عن الشافعي[٧٤] في هذا ما هو أعظم وأطيب ، من ذلك قوله : « كل ما قلت ، وكان عن رسول الله ﷺ ، خلاف قولي مما يصح ، فحديث النبي ﷺ ، أولى ولا تقلدوني » « كل حديث عن النبي ﷺ ، فهو قولي وإن لم تسمعوه مني ، إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحة فاحكوها عني ، فإني قائل بها »[٧٥] .

---

(٦٩) إمام دار الهجرة ، مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو ٩٣ - ١٧٩ هـ طبقات الشيرازي : ٦٧، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٤٨، تذكرة الحفاظ : ١/ ٢٠٧، تهذيب التهذيب : ١٠/ ٥

(٧٠) القصة أوردها ابن كثير في اختصار علوم الحديث : ١٢، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله : ٢/ ٨٩، والذهبي في سير أعلام النبلاء : ٨/ ٧٨

(٧١) حلية الأولياء لأبي نعيم : ٦/ ٣٣٢ ط دار الكتاب العربي ، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٩٨

(٧٢) اختصار علوم الحديث : ١٢، وعند الذهبي « فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سيق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ، وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم » سير أعلام النبلاء : ٨/ ٧٨

(٧٣) جامع بيان العلم وفضله : ٢/ ٩١، وهذه العبارة تنسب أيضًا لغير الإمام مالك .

(٧٤) الشافعي : محمد بن إدريس بن العباس بن شافع ١٥٠ - ٢٠٤ هـ طبقات الشيرازي ٧١، تاريخ بغداد : ٢/ ٥٦، سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٥، تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٦١، تهذيب التهذيب : ٩/ ٣٥

(٧٥) آداب الشافعي للرازي : ٩٢، ٩٤ ط دار الكتب العلمية .

ونقل ابن الجوزي في مناقب أحمد قال : « من رد حديث النبي ﷺ فهو على شفا هلكه »[٧٦] .

فهل بعد هذه الأقوال من وضوح أو بيان ؟ وكلها دلائل مؤكدة على أن من تمسك بالحق فهو متبع غير مبتدع ، ولا ينافي هذا تقديم بعض الأدلة أو ترجيح بعضها على بعض طالما خرج التقديم والترجيح عن دائرة التبني والتعصب ،... وتأثيم الآخرين ، وممن أخذوا بما لم نأخذ به . ولهذا جاء عن ابن تيمية قوله : « من قال إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منها يكفر كفرا ينقل عن الملة ، فهو قد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين »[٧٧] .

وهذا كلام ظاهر الدلالة في عدم تكفير الفرق ، فكيف بمن أخذ بقول دون قول مع التسليم بصحة الكل ؟..

وعند البخاري[٧٨] باب المعاصي من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، لقول النبي ﷺ ، إنك امرؤ فيك جاهلية[٧٩] ، وقول الله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءَ ﴾[٨٠] .

فهذا قول صدر من النبي ﷺ ، في حق رجل عير رجلا بأمه ، وهما من خيار الصحابة ، ومع كونه فيه جاهلية فليس خارجا عن الملة .

قال ابن حجر : « إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخلاق الجاهلية ، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه »[٨١] فما سوى الشرك وإن أطلق عليه أنه كفر أو معصية « كفر النعمة لا كفر الجحود » لا يخرج عن الملة ، وصاحبه ضمن دائرة الغفران .

ومن الأسباب :

٣- أن نعلم أن تشخيص الداء نصف العلاج . ونحن إذا ما حللنا عوامل اختلاف المحدثين والفقهاء - **ظهر لنا :**

أ - أن الاختلاف حقيقة واقعة من عهد النبوة ، ومن ثَمَّ لا يمكن تجاهل أسبابه ، أو

---

(٧٦) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي : ١٨٢ ط دار الآفاق الجديدة .

(٧٧) مجموع الفتاوي لابن تيمية : ٧/ ٢١٨

(٧٨) أبو عبد الله : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ١٩٤ - ٢٥٦ هـ ترجمته في : تاريخ بغداد : ٢/ ٤، اللباب : ١/ ١٢٥، وفيات الأعيان : ٤/ ١٨٨، سير أعلام النبلاء : ١٢/ ٣٩١، تذكرة الحفاظ : ٢/ ٥٥٥، تهذيب التهذيب : ٩/ ٤٧

(٧٩) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب : المعاصي من أمر الجاهلية : ١/ ١٤، من طريق شعبة عن واصل الأحدب ، عن المعرور ، عن أبي ذر ، وفي كتاب الأدب ، باب : ما ينهي من السباب واللعن : ٨/ ١٩ من طريق عمر بن حفص ، عن الأعمش ، عن المعرور ، عن أبي ذر . وأخرجه مسلم ، كتاب الإيمان : باب : إطعام المملوك مما يأكل : ٣/ ١٢٨٢، وأبو داود ، في كتاب الأدب ، باب : حق المملوك : ٣/ ٢٤٠. وأحمد : ٥/ ١٦١

(٨٠) سورة النساء آية رقم : ١١٦ (٨١) فتح الباري : ١/ ٨٥، ط دار المعرفة .

إهمالها ، أو القضاء عليها .

ب – إن المختلف فيه يقل كثيرًا عن المتفق عليه .

ج – إن الاختلاف إنما وقع في الفروع لا الأصول ، وإن جملة مما وقع فيه الاختلاف عند المتأخرين خاصة نتج عن رغبة وهوى ، وكان يمكن ألا يكون ، لولا قدر الله تعالى وحكمته . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[٨٢] . لهذا يجب ألا نهرب أو نيأس أو نتشائم منه ، طالما أنه سنة ماضية باقية ما بقيت الشريعة .

هـــذا :

وإني أرجو بعملي هذا أن أساهم في علاج جذور تلك الأزمة الفكرية التي كادت أن تقضي على الأمة بعد أن كاد يغيب عنها استحالة الاتفاق والاجتماع على شيء .

أرجو أن يتبصر المسلم بمناهج أئمة الحديث والفقه ، والعلماء عامة ، وبالأصول التي بنوا عليها اجتهادهم ، وأدى إليها بصرهم في أخذهم وتركهم .

أرجو أن تتضح بعض الحقائق التي يحتاج إليها المسلم بعد تعرفه على طبيعة الاختلاف واستبانة الصحيح ، ألا يبقي لديه نوع تردد أو تشكك في التنفيذ والتطبيق .

وأن نتغلب جميعا على تلك المشكلة التي برزت وما كانت لتخطر لعلمائنا قديمًا على بال .

مشكلة مسخ النصوص الحديثية وتعطيلها

إن العلماء – اهتموا بالنقد الداخلي والخارجي – اهتماما فاق كل تصور ، لكن ما لم يكن في حسبانهم هو إبطال مفعول النص ، تقييده وعدم العمل به النص صحيح من ناحيتيه الداخلية والخارجية ، متنه وسنده – مع هذا – تغلبنا نزعة القضاء عليه ، وإعدامه . من هنا يختل تماما الترابط العضوي والموضوعي ، الفكري والسلوكي ، وبالتالي يتكون لدينا كم هائل من الأحاديث المهدرة ، والمعطلة . ركام هائل من النصوص بعيدة عن الإستعمال ، وعندما يصبح أمر النصوص هكذا ، تختل العلاقة بين النص والواقع ، بين الفكرة والتطبيق ، فنفقد أعز ما لدينا من تراث نبوي كريم .

لذا لزم مع العناية بالنقد ، استعمال النص ما لم يكن ثمة مانع من التطبيق .

مصاعب ولا صمت لها ...

قضية الخلاف والاختلاف إنما وقعت بين علماء بلغو الدرجة العالية في الفهم والذكاء . فهم بحق جبال علم .

---

(٨٢) سورة هود آية رقم : ١١٨، ١١٩

والموضوع لا يتصل بجانب من جوانب النظر دون آخر ، فله صلته بالفقه وأصوله ، والحديث وعلومه ، واللغة وآدابها ... مما يترتب عليه صعوبة الفصل بين المتنازعين من ناحية ، وقبول نص أورده من ناحية أخرى . وما يترتب على ذلك من إعمال نص أو إهماله ، ووضوح الاستنباطات وتقديم بعضها على بعض ، إلى غير ذلك من قضايا للخلاف فيها مدخل كبير ، والتي ربما أدى طول النظر فيها إلى تحصيل حاصل ، أو غلو وتعنت من الموسوسين وذوي العقول المريضة ممن يلهيهم أمر الطهارة والنية عن تفويت وقت الصلاة .

الموضوع إذًا ليس من السهولة بمكان ، لتعدد جوانبه ، والمتعرض له بنحو مما قال عمر بن عبد العزيز(٨٣) : « إنني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله ، قد فنى عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره »(٨٤) ، وهذا كلام يفرض على مثلي الإحجام . غير أنه لا حيلة في تركه ولا مفر منه ، ولا سبيل إلى العدول عنه .

كل يداوي سقيما من مصائبه فمن لي بصحيح ما به سقم(٨٥)

خطة البحث ومنهجه :

يمكن القول بأن هذا البحث ليس انتصاراً لمذهب على آخر قدر ما هو توضيح لأثر الحديث النبوي في اختلاف المحدثين من حيث ثبوت الحديث ورده ، والفقهاء من حيث الإحتجاج به وعدمه .

بعد هذا استطيع تحديد خطوات العمل في هذا البحث على النحو التالي :

(١) نظراً لتعدد جوانب الموضوع وتشعبها فقد تنوعت مصادره ولذا فقد لزم الأمر تجميع مادته العلمية من مظانها سواء في ذلك النصوص والآراء اللازمة له ، مما حتم عليّ العمل في أكثر من مجال .

(٢) وإتمامًا للفائدة فقد قسمت البحث رغم ترابط عناصره وتكامل أجزائه ، فجاء مشتملا على :

- مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة .

---

(٨٣) أمير المؤمنين : عمر بن عبد العزيز بن مروان توفي سنة ١٠١ هـ ، الجرح والتعديل : ٣/ ١٢٢، طبقات الشيرازي : ٦٤، طبقات ابن سعد : ٥/ ٣٣٠، سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤، تذكرة الحفاظ : ١/ ١١٨، البداية والنهاية : ٩/ ١٩٢، تهذيب التهذيب : ٧/ ٤٧٥، شذرات الذهب : ١/ ١١٩، غاية النهاية في طبقات القراء : ١/ ٥٩٣

(٨٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ٣٧

(٨٥) إيثار الحق على الخلق : ٣٣ ط الدار اليمنية .

اشتملت المقدمة على :

* تمهيد .
* بيان أسباب اختيار الموضوع .
* منهج البحث وخطته .

الباب الأول : في حقيقة الخلاف والاختلاف .

وفيه فصول :

الأول : في حقيقة الخلاف والاختلاف وصلة كل منهما بالآخر.

الثاني : في أسباب الخلاف والاختلاف بين البشر .

الثالث : في الخلاف والاختلاف في ميزان الإسلام .

الرابع : في أدب الخلاف والاختلاف في الإسلام .

الباب الثاني : في أسباب اختلاف المحدثين في الحكم على الحديث .

وفيه تمهيد وأربعة فصول .

التمهيد في نشأة الاختلاف بين المحدثين ، وطبيعة اختلافهم .

أما الفصل الأول : ففي بيان اختلافات المحدثين المتصلة بالسند ، (النقد الخارجي) الاتصال ، الانقطاع ، صيغ الآداء .

الفصل الثاني : في أسباب اختلافات المحدثين المتصلة بالمتن ، (النقد الداخلي) تحرير ألفاظ الرواية بالمعنى ، زيادة الثقة .

الفصل الثالث : في أسباب اختلافات المحدثين المتصلة بالمحدث نفسه . العدالة ، والضبط .

الفصل الرابع : في أسباب اختلافات المحدثين المتصلة بالظروف المحيطة بالحديث ، الشواهد ، المتابعات .

الباب الثالث : في اختلافات الفقهاء ، في الحكم على الحديث .

وفيه : تمهيد ، وأربعة فصول .

أما التمهيد فقد تضمن :

أ – الربط بين الباب الثالث والثاني .

ب – طبيعة الخلاف والاختلاف عند الفقهاء ، ولماذا اختلف حكم المحدثين والفقهاء على الحديث ؟

أما الفصل الأول : ففي أسباب اختلافات الفقهاء في الحكم على الحديث . وفيه تعريف

obeikandl.com

بالفقه ، والفقيه ، وأخلاقه . أسباب اختلافات الفقهاء المتصلة بالفقيه .

الفصل الثاني : في اختلافات الفقهاء المتصلة برواية الحديث ، أسباب الاختلاف العارض من جهة الرواية ، عدم صحة الإسناد ، انقطاعه .

الفصل الثالث : في اختلافات الفقهاء المتصلة بالمروي « المتن » خفاء الدلالة ، خلو الحديث منها ، تساوي الدلالات ، وتعادلها ، معارضة الحديث بعض القواعد الأصولية .

الفصل الرابع : في موقف المسلم من الاختلافات الفقهية ، هل المسلم ملزم باتباع إمام من الأئمة ؟ دور الأئمة في بناء مذاهبهم ، الأصول التي اعتمدوا عليها ، التقليد ومواقف العلماء منه ، والفرق بينه وبين الاتباع .

الخاتـمة : في ثمرة الموضوع - علاقة اختلاف المحدثين والفقهاء - نتائج الدراسة والبحث .

(٣) حاولت الجمع بين طريقة المحققين فخرجت النصوص من مصادرها الأصلية ، وعرفت بالأعلام ، وطريقة المؤلفين من جمع بين متفرق أو شرح لمختصر أو اختصار لمطول ، وهكذا .

(٤) إن كل جهد في هذه الرسالة إنما هو ثمرة الوقوف على أكتاف العلماء ونتاج المربين الذين ربونا صغارًا وحملونا كبارًا ، والمنة لله وحده وهو ولي الجزاء . وشكر الله للعلماء بذلهم .

(٥) عالجت الفكرة بالفكرة ، ووضحت قول الإمام بقول إمام آخر ، ولم تتجاوز مهمتي ذلك أحيانًا .

ولذا فقد كان من الممكن أن تخرج هذه الدراسة بصورة أشمل وأفضل وأوضح ، ربما لو كانت بيد غيري ممن وهبوا حسن الفهم وجودة العبارة ودقة الإسلوب ، أو ممن توفرت لهم من الأسباب والإمكانات ما يتيح لهم ذلك .

وأسأل الله أن يجبر قصوري .

(٦) رقمت الآيات القرآنية ووضعتها بين قوسين مع الضبط والإشارة إلى السورة .

(٧) عزوت الأحاديث إلى مصادرها من كتب السنة .

(٨) عرفت بالأعلام مع الإشارة إلى مصادر ذلك .

(٩) وضحت الكلمات الغريبة .

(١٠) عملت فهارس عنيت بالنصوص ، والأعلام ، وأبواب البحث . والمراجع .

والله من وراء القصد وهو سبحانه حسبي ونعم الوكيل .

الباحث

* * *